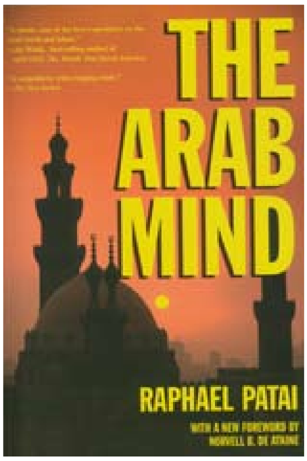


# العقل العربي 70

## تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

## الفصل السادس عشر
## التحليل النفسي للتغريب

### 7. الغرب الشرير

إن ما يحتل الأهمية الحاسمة في صياغة فهم لرد الفعل العربي على الغرب لا يتعلق كثيرا بحقيقة أن الغرب قد أدى إلى تغيير حياة العرب، أو أنه في طريقه إلى ذلك، وإنما في هوس الانشغال بالتغريب، ظاهرته ومشكلاته، تحليله وتقييمه، والتكرار الدائم لما هو جيد وسيئ فيه، والاقتراحات التوجيهية لتحديد ما ينبغي أن يقبل أو يرفض منه. والمواقف الخاصة بكل من هذه القضايا تتعدد إلى حد يتعذر معه تصنيفها. ولكن ربما يمكن ترتيبها على سلم يبدأ من وجهات نظر من يرفض كل ما يقدمه الغرب، وينتهي بمن ينصح بقبول كل ذلك. ولكن بغض النظر عن موقف المفكرين العرب من هذه المسألة، فهم يكادون يجمعون على تحميل الغرب مسؤولية الركود العربي الراهن.[1] والقلة القليلة منهم

1) من بين القلة من الكتاب العرب الذين يبرئون الغرب من المسؤولية عن الركود العربي: عبدالرحمان البزاز، محجوب بن ميلاد، ميخائيل نعيمة، موسى علمي. ومع ذلك فإن الميل إلى تحميل الغرب مسؤولية ذلك منتشرة إلى حد جذب أنظار الباحثين العرب والغربيين. ومن أولئك الباحثين الغربيين نذكر:
ويلفريد كانتويل سميث (Wilfred Cantwell Smith) الذي يشير في كتابه (الإسلام في العصر الحديث؛ ص100) إلى «الميل العربي المتواصل (والغامض عادة) إلى ربط علل المجتمع العربي بالأنظمة (الغربية) المستوردة». ويقول بأنه رأى في أبريل 1954 هذا الميل «يصبح محط الأنظار» في المظاهرات التي خرجت إلى الشوارع تشجب الانتخابات والنظام البرلماني والعملية الديمقراطية الرسمية برمتها، جنبا إلى جنب مع الرجعية والفساد. وبرنارد لويس (Bernard Lewis) الذي يقول في كتابه (الشرق الأوسط والغرب؛ ص96): «حدّد أحد الباحثين الإسرائيليين وجه الاختلاف بين المنهجين الديني والقومي في التعامل مع الأحداث كما يلي: المتدين يرى أن أسلافه شكروا الله على نجاحاتهم وألقوا اللوم في إخفاقاتهم على ذنوبهم ونقائصهم، أما القومي فيرى أن الشكر ينبغي أن يوجه إلى الأمة لنجاحاتها، وإلقاء اللوم على الآخرين في إخفاقاتها». وتشارلز كريمينز (Charles Cremeans) في كتابه (العرب والعالم؛ ص130).
كما كان هذا الميل عاملا يبعث الاضطراب في العلاقات العربية-السوفييتية، حيث نشرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم 30 يناير 1972 تقريرا من بيروت جاء فيه: «قالت مصادر من دول أوروبا الشرقية هنا أن لوم العرب للآخرين على إخفاقاتهم كان سببا أساسيا في ضعفهم»، وأشار التقرير أيضا إلى المظاهرات التي خرجت في عدد من العواصم العربية بعد حرب 1967 وقام فيها المتظاهرون «بترديد شعارات تلوم الروس على عدم مساعدة العرب في الحرب».

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

تواجهها الصعوبات في حسم أمرها، فينتهي بها الأمر إلى اتهام الغرب بالتسبب بالركود العربي وتبرئته من هذه التهمة في آن واحد. فالمفكر الجزائري مالك بن نبي ينتقد من يلوم الغرب على «الوعكة» العربية، ولكنه يشدد في الوقت نفسه على أن أوروبا أبدت الغرور في إحضارها علومها إلى المنطقة العربية المتخلفة أصلا بسبب وحيد هو أن أوروبا «تركتهم لوحدهم».[1] وعلى النسق ذاته، يقتبس الكاتب المصري أنور الجندي بسرور واضح الكثير من أقوال المستشرقين التي يمجدون فيها عظمة الإسلام وقدرته الفريدة على إرضاء الروح الإنسانية في كل العصور، ولكنه في الوقت نفسه يذهب إلى مدى أبعد ليحاول إثبات اتهام هؤلاء المستشرقين بالضلوع في مؤامرة خبيثة تهدف إلى إضعاف الإسلام وتدميره.[2]

وفي كتاب لنبيه أمين فارس بالاشتراك مع كاتب آخر تظهر لنا وجهة النظر المتضاربة نفسها حول ما قام به الغرب حيال العرب. فهما ينتقدان النظرية التي تعزو مجيء الاستعمار الغربي إلى علل العرب، ويسميان ذلك خداعا للذات، ويريان أن المفتاح الذي يفتح أبواب التقدم للعرب هو التنمية الفكرية الداخلية. ومن الناحية الأخرى، يسلم الكاتبان بوجود ميل لدى العرب إلى تحميل الآخرين مسؤولية أوضاعهم السيئة، و«الآخرين» هنا تعني بريطانيا وفرنسا. فهاتان القوتان الاستعماريتان دمرتا «الوحدة الجغرافية للعالم العربي» و«سعتا إلى تدمير وحدته الاجتماعية والاقتصادية والروحية، وفعلتا ما بوسعهما لتأخير تقدمه. فتحركتا ببطء شديد على الصعيد التعليمي». وفي ما يتعلق بالبريطانيين، فإن «عرقلتهم للصناعة المحلية كان لها أشكال عدة»؛ إذ «قاموا بتشجيع الإقطاعية في العراق وتقوية أسسها»، وفضلا عن ذلك، «أعاقوا عملية التحضر والتقدم من خلال تقديم امتيازات خاصة للعشائر لا يتمتع بها الحضر، والحفاظ على الأعراف والتقاليد العشائرية التي لا تتوافق مع أعراف المجتمعات المتحضرة وروح المواطنة الجيدة»، وكان دافع البريطانيين إلى ذلك أن همهم الأساسي يتمثل في «الإبقاء على ما في العراق من تجزئة، ونزاع بين شيوخ العشائر، وجهل السكان»، وكانت محصلة هذه السياسة أن «أغلبية سكان العراق بقوا على حال

1) مالك بن نبي: نداء الإسلام؛ ص16-17.
2) أنور الجندي: الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية؛ ص447-458.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

البدائية والجهل، يستعبدهم شيوخ العشائر، أميين، تفتك بهم الأمراض وسوء التغذية وحتى الجوع، ويعيشون عموما في مستوى معيشي بئيس». ويمضي الكاتبان في تحليل مشابه لسياسات فرنسا في الدول العربية التي كانت تحت سيطرتها.

يلاحظ دائما أن الكاتب العربي إذا ما ادعى بوجود جانب يحسب للغرب، لا عليه، فإنه يعرض نفسه لهجمات الآخرين الذين لا يريدون الاعتراف بوجود أي شيء جيد قد فعله الغرب. فهذا منتقد يكتب دون إيراد اسمه مهاجما الكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة فيكرر الادعاءات السابقة مشددا عليها بقوله: «الاستعمار الغربي هو السبب الوحيد للجهل والفقر والمرض؛ وهو وحده المسؤول عن انتشار الأمراض في البلاد العربية، والمأساة الدامية التي تدعى فلسطين».

وفي سبيل منح المصداقية لاتهام الغرب بالمسؤولية عن ركود العالم العربي وتخلفه، يلجأ الكتاب والقادة العرب عادة إلى استخدام وسيلة ألوان زاهية لتلوين صورة الحالة العربية قبل التدخل الغربي. فعلى سبيل المثال، يتمثل جزء من معتقدات الوطنيين المغاربة المتشددين في أن أوضاع المغرب كانت ممتازة قبل الاحتلال الفرنسي؛ «فالنظام التعليمي، حتى للفتيات، كان يمر بحال ازدهار. وكان السلطان في طريقه إلى إنجاز أكثر إصلاحات التحديث جرأة عندما قام الأجانب بكف يديه». وحتى أن كثيرا من الأقليات الدينية كانت تعيش في ظل ما قبل الاحتلال «وضعا تحسد عليه، كما هو الحال في ظل أي نظام حكم إسلامي حقيقي».[1]

وفي خمسينيات القرن العشرين، كان هنالك بقايا من الهيمنة الأجنبية في بعض أنحاء العالم العربي بما يكفي لتوفير أرضية للاحتجاج الذي جهر به العديد من الكتاب العرب بأن غياب «الاستقلال الكامل» كان العامل المسؤول عن تخلف المسعى الفكري العربي، وأنه (بحسب أحد الكراريس التعبوية)...

1) روبرت مونتان (Robert Montagne): الثورة في المغرب؛ ص312-313.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

فقط عندما لا يكون هنالك أي أثر مهما صغر للنفوذ الأجنبي على الأرض العربية عندها يكون بالإمكان تحقيق أي تقدم حقيقي في اللحاق بالركب الاقتصادي للأمم الأخرى. وبنجاح هذا المسعى فقط سيكون العرب مؤهلين لاحتلال موقع عالمي ملائم. وعندما يصلون إلى هذا الموقع سيكون العرب قادرين على إظهار الحد الأعلى من قدرتهم على الإسهام في تقدم البشرية كما فعلوا في أيامهم الغابرة.

وبينما ليس هنالك من ينكر التأثير الغربي الكبير على الحياة العربية من بين الكتاب العرب الذين يكتبون عن العلاقة المتبادلة بين الغرب، فإنهم يعبرون عن مجموعة من الآراء التي تكون متناقضة في العادة حول الأهداف المتينة التي رغب الغرب بإنجازها من خلال تقديم أعطياته إلى العالم العربي. وبالرغم من ذلك، هنالك قاسم مشترك بين كافة تلك الآراء، وهو أنها تسلم بأن الغرب كان له، وما زال، أهداف أنانية شريرة في تعامله مع العرب.

في وقت مبكر يعود إلى عام 1930، كانت النظرة العامة متمثلة في أن الغرب قد أغرق العالم العربي بمنتجات إفرازاته الفكرية الخاصة في مجالات الفلسفة والأدب وما إلى ذلك، وذلك بهدف إغراق الروح العربية، وبذلك يتحقق إضعاف الشعوب العربية. فجاء في مقال نشر في جريدة الفتح القاهرية ما يلي:

ربما يستعمر الغزاة قلوب الرجال والنساء، وهذا هو الخسارة الكبرى، والانهيار النهائي. إن الخطر الحقيقي يداهمنا «بالحرب الروحية» التي تخوضها أوروبا «بمنهجية» ضد روح الشرقيين بعامة والمسلمين بخاصة، بمعاونة كتبها الفلسفية، ورواياتها، ومسارحها وأفلامها، ولغتها. إن هدف هذا «العمل المتناغم» ذو طبيعة نفسية تعمل على فصل الشعوب الشرقية عن ماضيها. إن أشد ما تخافه أوروبا الغازية هو الوعي بالماضي الذي بدأ يصحو في قلوب الهنود، والصينيين، والعرب بخاصة...

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

وثمة نظرة أخرى تتهم الغرب بفعل العكس من ذلك تماما: الحجب المغرض للجوانب الفكرية من ثقافته والاقتصار على تقديم التكنولوجيا، والمادية، و«الآلهة المزيفة» الأخرى للعالم العربي. وأن غرض الغرب من هذه الوسيلة كان إضعاف العرب من خلال لفت أنظارهم بعيدا عن قيمهم الروحية التقليدية الخاصة دون تمكينهم من إحلال القيم الغربية مكانها. وبهذا تسببت القوى الاستعمارية الأوروبية بانحطاط ثقافي في العالم العربي. ويعتنق هذه النظرة الفيلسوف اللبناني المعروف شارل مالك الذي قال عام 1952: «يمكن للمرء أن يبرهن على أن غياب الوحدة والمسؤولية والإخلاص والفهم والحب في الشرق الأدنى ما هو إلا عدوى قدمت من الغرب أساسا»، ويعلق على قضية غياب الفهم بقوله: «لم يقدم الغرب أفضل ما عنده من التقاليد الجيدة، وإنما اقتصر على تقديم الآلهة المزيفة للحضارة الغربية الحديثة: القومية، المادية، الشيوعية».

قبل مرور عام على ما قاله مالك، جاءت الفكرة نفسها على لسان فايز صايغ الذي أكد على أن الغرب هو من يتحمل مسؤولية عدم تقديم قيمه الحقيقية (يعدد منها: افلاطون، توما الاكويني، شكسبير، غوته، دوستويفسكي) التي «تمثل الشخصية الأصيلة للغرب... على نحو أكثر صراحة وإقناعا». وبما أن الغرب فشل في ذلك، فإن العرب فشلوا في التمييز ما بين الغرب العلماني المفترس الامبريالي الاستغلالي من جهة، وما بين «الغرب الأصيل» من جهة أخرى، مما أدى إلى رفض الخيار الذي قدمه الغرب لخلاص العرب وتنويرهم، فأغراهم بالوقوع في حبائل «الركود الروحي».[1]

وهنالك نظرة ثالثة ترى أن الغرب حجب عن العرب المهارات التكنولوجية لإبقائهم ضعفاء ومنعهم من التطور على الصعيد الاقتصادي. وممن يرى ذلك الكاتب عمر فروخ الذي يؤكد على أنه «يجب علينا أن نتهيأ لاستثمار المعرفة العلمية والتقنية التي حازها الغرب كي نتمكن من المنافسة في الصراع الذي يدور في هذا العالم الصغير على المستويين المادي والمعنوي». وكما رأينا سابقا، يتهم فروخ المؤسسات التعليمية العربية بأنها

1) فايز صايغ: فهم العقل العربي؛ ص38-39، 46.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

تحجب عمدا عن الطلبة العلوم العميقة المثمرة وتشجعهم على دراسة مواضيع نظرية مفصلة لا فائدة منها.[1]

وبينما يمتنع فروخ عن اتهام الغرب شخصيا بالمسؤولية عن هذه الحال السائدة في المؤسسات التعليمية العربية، فإن ما يرمي إليه يتضح بقراءة الشكوى ذاتها لدى كاتب عربي آخر أقل تحفظا. ففي مقال بعنوان «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي» للدكتور محمد كامل عياد، أستاذ الفلسفة في المعهد العالي للمعلمين في دمشق وله العديد من الدراسات حول المشاكل السياسية والثقافية في العالم العربي، يوجه الاتهام أولا إلى العرب لعدم اغتنامهم أكثر من مخازن الغرب. فالعمل المترجم الوحيد إلى العربية من أعمال الفيلسوف الألماني شوبنهاور هو انتقاده للمرأة. حتى أنه ينتقد العرب لتخلفهم بعيدا عن الغرب في دراسة تراثهم الثقافي الخاص بهم. لكنه ينتقل بعدها إلى فرضية توضح ما كان يرمي إليه عمر فروخ، فيتهم المستشرقين بشكل مباشر بأنهم عملوا على «تعزيز الأنماط الامبريالية»، وبسبب هذه الأنماط الامبريالية الخبيثة، يتابع الدكتور عياد، فإن العديد من المستشرقين تم توظيفهم «في وزارات خارجية الدول الغربية للعمل بدقة على تأليف ونشر كتب التصوف الإسلامي والهندي، ورعاية الرأي القائل بأنه ما من أمل لحماية الحضارة العالمية من الانحطاط والانهيار إلا بالعودة إلى (روحية) الشرق»، وأن على المرء أن لا ينخدع بادعاءاتهم، فهؤلاء المستشرقون جميعهم يعملون ضمن مؤامرة امبريالية، وكانت عنايتهم بالتوجهات المهتمة بالثقافة «الروحية» للشرق من أجل سبب واحد فقط: نيتهم في إبقاء الشرق، والعالم العربي بخاصة، في حالة من الخمول الروحي تجعل طاقاته كلها مركزة على الأمور الروحية واللادنيوية، فلا يتوفر عنده حينها اهتمام ولا طاقة تكفي لأن يتعلم من الغرب الأمر الوحيد الذي يستحق الاهتمام، وهو: التكنولوجيا. فالتكنولوجيا والعلم والصناعة والإعلام والتنظيم هي المجالات الحيوية التي يحاول الغرب الامبريالي أن يمنع العالم العربي من الخوض فيها. وهو يقوم عامدا بتثبيط عزائمهم «عن

1) عمر فروخ: عباقرة العرب في العلوم والفلسفة؛ ص155-158.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

تبني الثقافة الحديثة، وبالتالي، تحرير أنفسهم من الهيمنة الغربية». وغرضه في هذا أن يحتفظ بالحضارة الحديثة للأمم الأوروبية ويجعل الشعوب الأخرى ملتصقة بثقافتها القديمة: «تراثها الروحي». ولهذا كان الغرب جاهزا فحسب لدعم المؤسسات العربية التي تعنى بدراسة التراث الثقافي العربي: كالبلاغة والنحو والتصوف الإسلامي وما أشبه، دون أن يعمل على تقديم العون للعرب في بناء مختبرات، أو الحصول على معدات تكنولوجية، أو تأسيس أقسام في الجامعات لدراسة الأدب المقارن، والنقد الحديث، وفن الرواية.

وفي تناقض صريح، يتابع الدكتور عياد كلامه فيصف كيف أغرق الغرب العالم العربي قبل خمسين عاما بالمنتجات الصناعية إضافة إلى قوانينه وايديولوجياته. ونتيجة لهذا أخذ العرب عن الغرب التقنيات الصناعية الحديثة، والاختراعات، والهندسة، وتخطيط المدن. وحتى أن الأسرة ومنزلة المرأة قد تغيرت بتأثير الغرب. كما قدم الغرب للعرب التمدن، وخلق طبقة عاملة جديدة، وأدى إلى انهيار الإقطاعية، ورفع مستوى المعيشة، ودفع الجماهير إلى المطالبة بحقوقها. ويرى الدكتور عياد أن هذا الاتجاه هو الذي ينبغي أن تدفع نحوه الأقطار العربية بعجلة التنمية، لأن ما تحتاجه لضمان البقاء في عصر التنافس والكفاح هذا يتمثل في اكتساب التكنولوجيا الحديثة، والصناعات، والتخطيط الاقتصادي، والعلوم.

إن فرضية الدكتور عياد القائلة بأن الغرب شجع العرب لغرض في نفسه على التركيز على تراثهم الروحي من أجل إبقائهم في حالة من الخمول الفكري تصنف (رابعا) ضمن سلسلة الاتهامات التي يطلقها المفكرون العرب ضد الغرب الشرير.

وثمة اتهام خامس بأن الغرب زيف وشوه بخبث التاريخ العربي لضرب فخر العرب بماضيهم الذي له وحده القدرة على مدهم بالإلهام اللازم للقيام بمجهود قومي عظيم. ويعبر عن هذه الفكرة الكاتب والسياسي العراقي عبدالرحمان البزاز في كتابه (الإسلام

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

والقومية العربية)؛ فيؤكد على ضرورة إنجاز ثلاثة أمور لتحقيق التوافق بين القومية العربية والإسلام، وهي:

1. على العرب أن يحرروا أنفسهم «من السلطة الفكرية للغرب ومفاهيمه المستوردة،... وأن يفكروا، باستقلال وأصالة، بمشاكلهم وشؤونهم وتاريخهم».
2. «عليهم أن يعملوا بجد وإخلاص ليقدموا ماضي أمتنا من جديد، ويكتبوا تاريخنا بأسلوب علمي صحيح، من أجل القضاء على هذه الصور (المشوهة)، ووضع حد لهذه التقييمات الخاطئة، وتمزيق تلك الصفحات السوداء التي خطتها أقلام المتآمرين المتحاملين».
3. «علينا أن نتطلع للإسلام الذي نعتز به كثيرا ونؤمن بأنه انعكاس للروح العربية ومنبعها الروحي الذي لا ينضب».

وكما نرى، فإن اثنين من الشروط الثلاثة السابقة للتوفيق بين الإسلام والقومية العربية تتضمن اتخاذ موقف ضد الغرب وضد ما علمه الغرب للعرب. ومع ذلك يبدو أن البزاز غير منتبه إلى التناقض بين دعوته إلى رفض «المفاهيم المستوردة» من الغرب ومطالبته بأن يقوم العرب بكتابة تاريخهم «بأسلوب علمي صحيح»: ففكرة كتابة التاريخ بأسلوب علمي صحيح ما جاءت إلا من الغرب، كما هو حال الأساليب النقدية في كتابة التاريخ التي لا يمكن من دونها إعادة كتابة التاريخ العربي.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©